عبقرية الشريف الرضى

تأليف الدكتور زكى مبارك

بقلم الأستاذ محمد هارون الحلو

لأستاذنا الدكتور زكى مبارك قلب يزخر بالفتوة وينبض بالعافية على رغم ما فيه من هوى مكتوم ولواعج مضطرمة ، وقد يلازم هذا الشذوذ والتناقض كثيراً من الأدباء ورجال الحكمة وقد يكون ذلك لقدرتهم على الشكوى والأنين والتلهى أحياناً بالفلسفة أو التفلسف فى تشريح العواطف والوجدانات !

وهو يعيش فى أودية الفن ، الفن الروحى ، ويهيم أبداً فى ملكوت الخيال ولهذا كانت جل بحوثه من تيه عبقر ، ومن همسات الشياطين !

والدكتور زكى له طريقة فى البحث يكاد يستقل بها عن غيره من أعلام الأدب والكتاب الأنبيناء فهو حين يكتب لا يعدو أن يكون مترجماً لأشرف العواطف وأنبل الغرائز البشرية بصورة واضحة لا غموض فيها ولا تلبيس

تنطلق عنه الفكرة مستقلة ، تشرق فى آفاقها الحقيقية وتلتمع فى أقطارها صورة تلك الروح التى انبثقت عنها تلك الفكرة ، فهو إذا بحث كان « فسيولوجياً » فى بحثه ، فناناً فى أسلوبه ، تلمح فى مأثوره قوة الانفعال ومدى خصوبة القريحة ؛ ويستوقفك فى تضاعيف بحوثه الطلية رشاقة الأسلوب وتأنق المعنى ووضوح الفكرة وترتيب المعانى وحسن السبك ... وغير ذلك من الصفات التى أعطت أدبه لوناً خاصاً يمتاز به عن غيره ، كما أنه ينفرد بين أدبائنا بجرأته ، وهو يعتمد فى ذلك على مواهبه وثقته بنفسه ؛ فهو يتوفر أبداً على نصرة فكرته ، لا يتقهقر ولا يتأخر

وكان له من نشوة الظفر ما يدلُّ به كثيراً على خصومه ، وكثيراً ما يعتد بنفسه شأن المتثبت المتمكن القوى الإيمان ؛ فإذا أراد أن يمرّض بخصم أو يمازح صديقاً ؛ فهو ذو دربة بأساليب التكيد وطرق الممازحة والمؤاخذة الأليمة والنيل من خصومه ومن أصدقائه أيضاً !

وثمّت خلّةٌ أخرى تكاد تكون من لوازم ذلك الأديب الكبير ، وهى صبرُه فى البحث وقوةُ روحه فى استقصاء المعانى فى الموضوعات التى يطرقها

ولقد كان وفاء زكى مبارك أبرز صفاته الشخصية ، فهو يذهبُ إلى العراق ليرفدَ أهلها من معينه السائغ ؛ فلو أنك أيها القارئُ قد اطّلعت على ذلك السِّفر النفيس (عبقرية الشريف الرضىّ) لَجَاز لك أن تقول ما قاله أحد أدباء بغداد حينما قرأ ذلك الكتاب : « إن نثر زكى مبارك له روعة تفوق شعر الشريف الرضى فى بعض الأحيان »

لا يمكننى أن أصف ذلك السِّفر الذى أقامه الدكتور زكى نصباً خالداً للشريف الرضى بقدر ما كتب هو عنه فى مقدمته إذ يقول : « إن القلمَ جرى فيه بأسلوب ما أحسبنى سُبقت إليه فى شرح أغراض الشعراء ، حتى كدت أتوهم أنى طفتُ بأودية لم تمرفها الملائكة ، ولا الشياطين »

ومن اعتداده بمؤلفه وتمريضه بغيره من المؤلفات ما يقوله أيضاً فى سياق حديثه عن الشريف : « سيرى قراء هذا الكتاب أنى جملت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون فى جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبى ، وأستطيع أن أجيب بأن الشريف فى كتابى أشعر من المتنبى فى أى كتاب . ولن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب ! »

وله العذر فيما يقول فكتابه عن الشريف وعبقريته ، ضرب من السحر لم يشرع فى الكتابة من قبل ولم يأت على طريقة الأدباء بعد ، فهو توجيه جديد فى الدراسات الأدبية حيث يقف المؤلف من الشاعر موقف الصديق من الصديق ، ويحصى عليه ويحصى له ويتحدث إلينا بإخلاص وأمانة ، ويسجل رأيه الخاص فى كل ما يعرض له ، فالكتاب حافل بآراء جديدة وفلسفة فريدة

ولقد امتزج روح المؤلف بروح الشريف ، وتأثر به أعمق التأثر ، انتقل معه إلى عصره الذى كان يعيش فيه ، وأحبه حبا عنيفاً ، حتى أصبح زكى خلاله مسرفاً فى التمدح بأفضاله ، فإذا مر بهفوة له فإنه يرفق به ويشفق عليه شأن ما يحدث عادة بين الخلصان من الأصحاب والأصدقاء